

المحاولات الفرنسية لطمس الهوية الجزائرية إبان الاحتلال.

(1830-1962م).

الأستاذ لبيد عماد

جامعة الجزائر - 3 -

البريد الإلكتروني / imadlabid@yahoo.fr

الملخص:

يعرف الاستعمار الفرنسي في الجزائر كأحد أشجع النماذج الاستعمارية، وذلك انه لم يكتف بالاحتلال العسكري للأرض والاستغلال اللانساني للفرد الجزائري في خدمتها، بل سعت الادارة الاستعمارية جاهدة الى احتلال العقل وتهديم البنى الحضارية للمجتمع الجزائري واعادة صياغته وما يتماشى ويكفل الهدف الاستعماري الاستيطاني.

وعليه فان تكريس هذا المنظور الحضاري الاستعماري لن يتأتى سوى بالقضاء على الواقع الفكري والثقافي السائد عبر محو مقومات الشخصية الجزائرية، واذابتها في المجتمع الأوروبي المستوطن، وسلخها نهائيا عن انتمائها العربي الاسلامي من خلال عدة سياسات وأليات ايديولوجية.

تهدف هذه الدراسة الى التطرق الى اهم هذه السياسات وكيف اثرت في المجتمع الجزائري ماضيا وحاضرا .

French colonialism in Algeria is known as one of the most dangerous colonial experiences, Because he wasn't satisfied with a military occupation of the land and the man who served, french theorist believes that the occupation of the mind will spend more settlement process, and the destruction of the cultural infrastructure of the Algerian individual, as the most important way to install French colonialism in Algeria.

This study aims to answer the most important of these policies and how it has influenced in the past and present of Algerian society

لم يكن الاحتلال الاستيطاني في أي تجربة من التجارب المختلفة عملا من أعمال العسكريين فحسب، ولا هو حركة لا واعية ينتقل بموجبها كتلة من شعب للاستيطان من رقعة جغرافية إلى أخرى، فالتنظير الإيديولوجي العقائدي قد يسبق الحركة الاستعمارية الاستيطانية العسكرية بزمن طويل (كما هو الحال في الأنموذج الاستيطاني الصهيوني في فلسطين)، كما انه قد يسبق أو يتزامن و الحركة العسكرية الميدانية كما في حالة الاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر.

وكغيره من الجيوب الاستعمارية فان الاستعمار الفرنسي في الجزائر لم يعتمد فقط على الوسائل العسكرية، والآليات والأدوات السياسية، والتنظيرات القانونية في سعيه الدؤوب إلى تقوية وتوسيع العملية الاستيطانية، بل كان من أكثر النماذج الاستعمارية الغربية تطرفا وتركيزا على الجوانب الثقافية والعقائدية، ويبرز ذلك من خلال محاولات دقيقة وطويلة المدى من الادارة الاستعمارية لتهديم كافة البنى الإيديولوجية المكونة للشخصية الجزائرية العربية المسلمة.

يرى المنظور الاستيطاني الفرنسي انه ليس بمقدور الاضطهاد والقوة العسكرية، وكل الأساليب الأخرى (التجنيس، الإدماج، التهجير، الإحلال، أو التقتيل) أن تؤتي ثمارها على المدى الطويل، لأن القوة مع الجزائريين ستقابلها عملية عكسية غير محمودة العواقب، ومن ثم تم تدعيم هذه الأخيرة بأساليب الاستلاب الفكري والاجتثاث الثقافي والعقائدي، فتطبيع فكر الجزائري واعتقاده، وما يتماشى والثقافة الفرنسية من شأنه أن يكفل استقرار العملية الاستعمارية الاستيطانية في هدوء وعلى مدى بعيد الأمد.

وعليه فان تكريس هذا المنظور الحضاري الاستعماري لن يتأتى سوى بالقضاء على الواقع الفكري والثقافي السائد عبر محو مقومات الشخصية الجزائرية، واذابتها في المجتمع الأوروبي المستوطن، وسلخها نهائيا عن انتمائها العربي الاسلامي من خلال عدة سياسات وآليات ايدولوجية، بدأت بالموازاة مع بدايات تقديم اعتذاريات مفصّلة لتوسيع الوجود الشاذ في الجزائر، ومحاولة تصوير الحركة الاستيطانية الفرنسية على

أنها رسالة تمدين وحركة من أجل نشر الحضارة بين الأهالي البدو القرويين، فقد كان من ضمن الإدعاءات الاستيطانية أن المستوطنين يحملون رسالة حضارية لتطوير وبناء المناطق التي استوطنوها، وبذلك حاولوا أن يضيفوا على استيطانهم حقوقا مشروعة للغزو والسيطرة¹.

وفي ظل هذا الواقع النظري المطروح يبرز تساؤلنا : ما هي أهم السياسات والمرجعيات الإيديولوجية المعتمدة من طرف الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر؟ وما مدى مساهمتها في محاولات طمس الهوية والشخصية الجزائرية إبان الاحتلال(1830-1962م)؟ .

لقد تم تبرير العمليات والرؤى الاستيطانية الفرنسية وتكريسها من خلال محاولات فرنسة الأهالي(لسانهم، تفكيرهم، دينهم، تقاليدهم، عاداتهم وتصرفاتهم.....)، وتنصيرهم (تحولهم عن دينهم وليس فقط تمسيحهم) دينهم الذي هو أساس ثقافتهم، ولب قوتهم وتماسكهم وتكافلهم، بالموازاة مع محاولات تجهيلهم (محاربة التعليم التقليدي الكتاتبي، تشجيع الخرافات والبدع والشعوذة، تحريف الدين الاسلامي) وكذا الضرب على وتر التفرقة والمغايرة الثقافية (العرب و الأسطورة البربرية).

سياسة الفرنسة:

والفرنسة تعني إحلال الثقافة الفرنسية محل الثقافة العربية الاسلامية في الجزائر، حتى ينسى الجزائريون مع مرور الزمن لغتهم العربية وثقافتهم القومية ويستبدلونها بلغة وثقافة المستعمر، وبذلك يتم صبغ البلاد بصبغة فرنسية، فتقطع جميع الروابط التي تربط الجزائر بماضيها وحاضرها، وبذلك تصبح أكثر انقيادا وقابلية للإدماج النهائي، وهي نظرة استيطانية مستقبلية بحته ترى في مستقبل الجزائر على أنها هي نفسها فرنسا، فقد كانت فرنسا ترى أن فرنسة الجزائر تعدّ من الأمور الحتمية التي لا مناص منها من أجل تحقيق المشروع الاستيطاني المستقبلي الدائم، إذ ورد في أحد التعليمات التي صدرت أيام الاحتلال "إن أياها الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا لغة قومية، والعمل الجبار الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي بالتدرج، إلى أن تقوم مقام اللغة العربية"². كما دل على ذلك تقرير فرنسي في هذا الصدد يرى أن: " محاولة

إطلاع الشباب (الجزائريين) على حضارة المستعمر وتقاليده وكل معارفه ليصبح هؤلاء الشباب عناصر مفيدة ووسطاء بين إخوانهم في الدين والفرنسيين"، كما أعلن الدوق "دي روفيقو" قائلاً: "إن المعجزة التي يمكن صناعتها في الجزائر، هي إحلال اللغة الفرنسية شيئاً فشيئاً محل اللغة العربية"³.

وتوطيدا لركائز الاستعمار الاستيطاني بمختلف أشكاله السياسية والاقتصادية والاجتماعية و الحضارية، تمّ رفع شعارات منادية "بالتعليم من أجل الفتح" والعلاج من أجل الفتح"، وبذلك ظلّت النظرة الإستعمارية بعيدة الطموح للجعل من التعليم والمدرسة وسيلة نحو تحقيق غاية أساسية ألا وهي توغل فرنسا بإفريقيا⁴ انطلاقاً من توغلها واستيطانها في الجزائر.

والواقع أن سياسة الفرنسية كانت تسعى إلى محو هوية الشعب الجزائري عن طريق قوانين التجنيس، ومن خلال محاربة التعليم العربي واللغة العربية وفرنسة الإدارة والقضاء، من خلال إعتبار اللغة العربية لغة أجنبية ولا يجوز تعليمها في مدارس حكومية أو شعبية إلا على أساس اعتبارها لغة أجنبية، القضاء على جميع مراكز التعليم والثقافة العربية (المدارس الرسمية، المعاهد، الزوايا، الكتاتيب، التعليم في المساجد)، و تشويه تاريخ الجزائر في ظل (الأمازيغية، الإسلام، العروبة) بقصد إحداث الشك حول انتماء الجزائريين.

ومن ثمة انحصر اهتمام علماء الآثار والتاريخ الفرنسيين في البحث عن تاريخ الجزائر في الفترة الرومانية، محاولين إقناع الجزائريين بأن بلادهم رومانية في ماضيها، فرنسية في حاضرها ومستقبلها، وعليه تم تدريس تاريخ وجغرافية فرنسا على حساب الجزائر، فيما تم فرنسة المحيط بتغيير كل أسماء المدن والشوارع والقرى وإعادة تسميتها بأسماء شخصيات فرنسية وأوروبية⁵، أكثرها من القادة العسكريين الذين ساهموا في احتلال فرنسا للجزائر.

في ظل هذه السياسة تنشأ الأجيال الصاعدة نشأة ممسوخة في كل شيء ومقطوعة عن جذورها وحضارتها الأصلية، وفي هذا يؤكّد الكاتب "عبد القادر ماجن" فيقول على لسان الاستعمار الفرنسي "إننا في أي بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام، ولنسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفيننا تذبذب ولائه بين الإسلام وتلك

الحضارات"⁶، فتكون بذلك عملية الانقياد للسياسة الفرنسية أكثر سهولة وقابلية لتتأججها.

ورغم أن سياسة الفرنسية أدت أشواطاً مهمة في تكريس الظاهرة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر، وتدعيم توسعها عن طريق تهيئة بيئة جديدة أكثر قابلية للفكر الفرنسي وتصوراتها، إلا أن هذا الأخير أخطأ عندما تصوّر سهولة القضاء الكامل على الشخصية والهوية الثقافية للشعب الجزائري وسهولة إذابتها الكاملة في الشخصية الفرنسية، لأن الإسلام والعروبة وميزات متجذّرة لدى سكان الجزائر ويصعب اجتثاثهما بسهولة، وبذلك فشلت السياسة الإستعمارية في هذا الجانب في تحقيق أغراضها في كامل تراب الجزائر.

- سياسة التنصير:

لقد أدرك الاستعمار الاستيطاني الفرنسي ومنذ الوهلة الأولى للاحتلال حجم تأثير الدين الإسلامي في تاريخ الجزائر، وبذلك تولّدت لديه قناعة تامة بأن السيطرة على هذه البلاد، وإخضاع شعبيها لن يتأتّى سوى بانتهاج سياسة الإبادة الروحية، واجتثاث الدين الإسلامي من نفوس الجزائريين وبكل الطرق والوسائل، بتشجيع عمليات التبشير والتنصير تمكيناً للمسيحية فيها، فقد تمت المزاججة بين الغزو العسكري والغزو الفكري (غزو الأرض وغزو العقل والأفكار)، حيث قام العسكريون بتنفيذ الغرض الأول، بينما قام رجال الدين بالغزو الفكري والعقائدي.

ففي حالات عدة لم تقتصر عملية التبشير على رجال الدين وحدهم، وإنما كان عدد من السياسيين والعسكريين متحمّسين لهذه الفكرة، فأثناء الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر (1830م) اصطحب الغزاة معهم رجال الدين حتى يكتمل الغزو العسكري بالغزو الفكري⁷. حيث لم يمض شهران من الاحتلال حتى تم إصدار عدة قرارات في هذا المجال كان بداياتها:

- قرار كلوزويل 12 جوان 1830م / أمر 8 سبتمبر 1830م: اللذين يقضيان بالاستيلاء على الأوقاف الإسلامية بمختلف أنواعها، والتي تموّل الخدمات الدينية والثقافية والتعليمية والاجتماعية للمسلمين الجزائريين⁸.

- قرار 8 أوت 1838م: الذي أنشأ أسقفية الجزائر برئاسة "أنطوان ديبش"، ثم الكاردينال "لافيجري" الذي أنشأ سنة 1869م جمعية "الآباء البيض".

لقد كان الاستعمار الفرنسي يأمل في أن يعقب الانتصار العسكري في الجزائر انتصار المسيحية، لذلك نجد تصريح قائد الحملة "ديبومون" للقساوسة ورجال الدين يقول فيه "إنكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا، ولنا أمل أن تتبع قريبا الحضارة التي انطفتأت في هذه الربوع"⁹.

وتكريسا للهدف الاستيطاني من خلال سياسة التنصير تم اتخاذ عدة إجراءات منها:

- إخضاع كافة النشاطات الدينية والمبادرات الخيرة للرخصة المسبقة.
- اعتبار الحج من أسباب التعصب الديني وإخضاعه للرخصة المسبقة.
- إخضاع القضاء الإسلامي إلى القانون الفرنسي.
- تشجيع الإرساليات البشرية والبعثات التنصيرية، وبناء المؤسسات المسيحية والمهودية.
- هدم المساجد والزوايا إثر كل مقاومة، وتحويلها إلى كنائس وثكنات عسكرية ومخازن وإسطبلات.
- إلغاء شرعية الأعياد الدينية الإسلامية والاستيلاء على الأوقاف، وإفساح المجال للمبشرين لإدخال الشعب الجزائري إلى حظيرة الدين المسيحي.

لقد اشتهر الجنرال "بيجو" في هذا الميدان، من خلال ما يعرف بـ "سياسة الأرض المحروقة" والتدمير الثقافي والحضاري، إذ كان يرعى ويقدم المساعدات الضرورية للمبشرين الذين ازداد نفوذهم في فترة حكمه، وفي إحدى هجوماته على القرى، انتزع (250) طفل من قرية في بوفاريك* بعد أن شرد عائلاتهم¹⁰، وأتى بهم إلى القسيس وسلّمهم له قائلاً: "حاول يا أبت أن تجعل منهم مسيحيين وإذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار"¹¹، وقد كان المبشرون يقومون بدور بارز في التحضير لعملية الإستيطان الكامل لكنهم يصطدمون بحاجز الإسلام القوي في نفوس الجزائريين، وعبر الفرنسيون عن قلقهم من ذلك بقولهم "إن المسلمين إذا اعتنقوا الدين المسيحي فإنهم يستظهرون لنا الطاعة ويصبحون إخوانا لنا ... ألا تتطلب

سعادة هؤلاء الأشقياء أن نقوم بهذه المحاولة؟ إننا عندما نقدّم لهم العقيدة الجديدة سنضع حدا لهذا الفيض الشنيع من طبائعهم وأخلاقهم¹².

احتضنت فرنسا سياسة تبشيرية واسعة النطاق- رغم أنها دولة لاثنية كما ينص دستورها*- في محاولة لإخراج الجزائريين عن ديانتهم وإحلال المسيحية محل الديانة الإسلامية، إذ تولى "الكاردينال لافيغري" تنفيذ "سياسة التمسح" وإدخال الجزائريين في بوتقة الفرنسيين روحيا وعقليا، فعندما أصبح أسقفا للجزائر سنة 1867م قرّر غزو عقل الفرد الجزائري بعد أن ظهر له أن عملية الاحتلال العسكري (احتلال الأرض) تكاد تنتهي، وبالتالي استكمال تحويل الجزائر إلى مستعمرة استيطانية عن طريق جمع الأطفال اليتامى وجعلهم ينشئون على الدين المسيحي، ومنهم كوّن طبقة جديدة من المبشرين عرفت "بالآباء البيض"¹³ وانتشرت بالخصوص في بلاد البربر¹⁴.

سعى "لافيغري" الى تفكيك المجتمع الجزائري ليترك المجال واسعا لعملية تنصيره، فقد استطاع أن ينشر المسيحية بخطى واسعة، ويتبين سعيه هذا من خلال قوله "إن عهد الهلال في الجزائر قد ولى وقبر، وأن عهد الصليب قد بدأ، وأنه يستمر إلى الأبد... وأن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهذا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحما من الإنجيل"¹⁵.

لم يعد ثمة من شك في الارتباط الوثيق بين السياسة التبشيرية المسيحية الفرنسية والاستعمار الاستيطاني على إعتبار أنه أداة أشد خطورة من الجانب العسكري، بما أنه يمس جوهر الفرد، فيغير نمط اعتقاده وتفكيره قناعاته وثنابته، بل الأكثر من ذلك عندما يصبح المنتصر في المجتمع الجزائري الإسلامي أكثر دفاعا من المستوطن - في حد ذاته- على مصالح المستعمر، ولعلّ أكبر مثال على ذلك ما عرف بالجزائر "بالآباء البيض"، فالتنصير آلية من آليات تكريس وتثبيت الاستعمار الاستيطاني، وفي ذلك يقول المفكر والمبشر الأمريكي "جاك مدلسون": "لقد تمت محاولات نشيطة لاستعمال المبشرين، لا لمصلحة المسيحية وإنما لخدمة الاستعمار والعبودية"¹⁶.

كان لهذه السياسة آثار خطيرة على الشعب الجزائري، وعليه كان رد الفعل الوطني عنيفا من خلال اندلاع عدة ثورات في مختلف جهات الوطن، خاصة مع بروز مشروع

استعماري استيطاني واضح في مواجهة الشريعة الإسلامية، وأصبح انتقاد الدين جزءا أساسيا من التفكير الاستعماري الفرنسي، وتجلّى ذلك بإصدار مراسيم وقوانين لإعادة تكييف القضاء الإسلامي وربطه ربطا مباشرا بالقضاء الفرنسي.

- التجهيل والمغايرة الثقافية:

يعتبر الوضع الثقافي لأي مجتمع انعكاس لواقعه السياسي وبنائه الاجتماعي والاقتصادي، وتطلعاته وتوجهاته المستقبلية، ولذلك سرعان ما انتبه المستعمر الفرنسي لهذا الجانب من خلال محاولاته لفهم تركيبته الاجتماعية، فلم يتم تجريد الجزائري من أرضه وحسب، بل عملت الإدارة الإستعمارية جاهدة على تجهيل العقول وافسادها وإبقائها متخلفة من خلال الاستراتيجيات والجهود الهادفة إلى القضاء على الثقافة الوطنية التي كانت سائدة. من خلال قطع الروافد التي كانت تغذي الثقافة الوطنية وتنمّيها (كالتعليم التقليدي الكتائبي، والتعليم

الأهلي)*، موازاة مع الدور الرئيسي الذي كان يهدف إلى نشر الجهل والتخلف سعيا إلى تكوين نخبة متأثرة بالثقافة الغربية، مفرنسة، وتابعة فكريا وثقافيا للغرب تعمل بشكل مباشر أو غير مباشر لخدمة سياساته¹⁷، وبالتالي جعل الثقافة الفرنسية بديلا عن الثقافة الوطنية الجزائرية بكل ثقلها التاريخي واللغوي والتراثي.

عملت الإدارة الفرنسية على تكريس تجهيل الأهالي، فهدّمت معظم المدارس وأغلقت أخرى، وراقبت الباقي، وقاومت التحاق الجزائريين بمؤسسات التعليم الفرنسية، ففي سنة (1870م) كان هناك 36 مدرسة ابتدائية عربية فرنسية و1300 تلميذ ومعهدان عربيان فرنسيان، وثلاث مدارس دينية إسلامية، فتم تقليصها والحد منها، فانخفضت إلى 16 مدرسة عام 1882م، وفي عام (1883م) طبّق التشريع الفرنسي الجديد في الجزائر، فاستاء المستوطنون وشيوخ البلديات من ذلك وأعلنوا رفضهم لبناء مدارس لما سمّوه "جماهير الصعاليك" من الأهالي، وتعلّوا بهاضمة التكليف، وبسعي الأهالي المتعلمين بعد ذلك إلى تحقيق الجزائر العربية¹⁸. لذا فقد كانت الجهود الاستيطانية في تجهيل الجزائريين وتقليص تعليمهم وإبعادهم قدر الإمكان عن تراثهم وثقافتهم الأصلية ويهدف ذلك إلى:

- إيجاد تجمع استيطاني من أبناء الدولة المستعمرة يكون له تأثير ثقافي على المجتمع

الأصلي¹⁹.

- نهب التراث الثقافي الجزائري الذي يعثر عليه في مكتبات المنطقة المستعمرة من الوثائق والمخطوطات والكتب²⁰، حيث تم نهب المكتبات الجزائرية فلم تسلم حتى مكتبة "الأمير عبد القادر"، إذ قام جنود الجنرال "دوق دومال" بتخريب هذه المكتبة، حتى أن المؤرخون يقولون أن الأمير أصابته نوبة من الحزن الشديد وهو يتتبع أثر الطابور الفرنسي مسترشدا بالأوراق المبعثرة المنتزعة من كتبه التي عانى الكثير في جمعها وإعدادها.

- محاربة اللغة العربية عن طريق القضاء على مراكز الثقافة العربية التقليدية التي كانت قائمة والتي تمثلت في المدارس والزوايا والجوامع، وبالرغم أن المدرسة التقليدية لم تكن تقدّم علوماً حديثة ولا يعوّل عليها لإحداث نهضة ثقافية وحضارية، إلا أن المستعمر كان يدرك دورها الهام في الحفاظ على اللغة العربية والتراث الوطني، ومنه جاء تركيزه عليها لأنها كانت عنصراً أساسياً في المقاومة الوطنية والثقافية والحضارية ضد الوجود الاستعماري، وفي هذا كتب أحد القادة الفرنسيين تقريراً عن الأحوال في الجزائر سنة (1864م) قال فيه "علينا أن نضع العقبات ما أمكننا ذلك في طريق المدارس التقليدية هنا، وهكذا نزع السلاح المعنوي والمادي للأهالي الوطنيين في الجزائر"²¹، فكان الاعتقاد الاستعماري الفرنسي أن إمكانية بقائه وإستمراره مستقبلاً مرتبط بدرجة المسخ الثقافي والديني واللغوي للأهالي الجزائريين سواء بفرنستهم أو بتجهيلهم أو مزيجاً بين الإثنين .

ثم إن الاستعمار بمحاربهته للغة العربية كان يدرك أنها العامل الموحد والمحرّر، ولأنها لغة القرآن والسّلاح الفكري الفعال في ميدان الصراع بين الشعب الجزائري والإمبريالية، وبين الأصالة وعملية المسخ الإستعمارية²² لذا حاول تقنين إجراءات تعلّمها بهدف القضاء عليها من خلال إصدار عدة قوانين في هذا المجال منها نذكر منها :

- مرسوم 18 أكتوبر 1892م: يقضي بعدم فتح مدارس عربية إلا برخصة من الحكومة، وكانت هذه الرخصة لا تعطى إلا بعد تحرّر دقيق عن سلوك طالها، والتأكد من أنه مخلص لفرنسا²³ بعدما ألغت سنة (1887م) إجبارية التعليم التي أعلنت سنة (1883م)*.

- قانون 24 ديسمبر 1904م: يقضي بعدم السّماح لأي معلّم بفتح مدرسة لتعليم اللغة العربية دون الحصول على رخصة من عامل العمالة، أو الضباط العسكريين في المناطق الخاضعة للحكم العسكري، ويشترط منح الرخصة الالتزام بما يلي:
- اقتصار التعليم على تحفيظ القرآن الكريم دون غيره.
- أن لا يقوم بشرح آياته وخاصة التي تتحدث عن الجهاد.
- عدم القيام بتدريس تاريخ الجزائر وجغرافيتها.
- أن يكون مخلصا للإدارة الاستعمارية ويخضع لأوامرها مهما كان شأنها.
- يحضر على هذه المدارس أن تستقبل الأولاد الذين هم في سن الدراسة أثناء ساعات التعليم في المدارس الفرنسية حتى ولو كان ذلك في القرى البعيدة (أكثر من 3 كيلومترات).²⁴

كان الهدف من ذلك غلق الأبواب في وجه الجزائريين حتى لا يتعلموا لغتهم وتاريخ بلادهم وأمتهم، وحتى لا تكون لهم ثقافتهم التي تؤدي إلى نهضتهم وتحرّهم²⁵ ، ففي 21 مارس 1908م طالب مؤتمر الزراع الفرنسيين بإلغاء التعليم الابتدائي للجزائريين لأن ذلك سيكون خطرا على المستوطنين من الناحية الاقتصادية، ومن ناحية توطين الأوروبيين في الجزائر.²⁶

ومن بين القرارات التي صدرت في هذا الشأن:

- قرار 08 مارس 1938م: ينصّ على اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر ويمنع تبعا لذلك تعليمها في المدارس.

- قرار 02 جويلية 1945م: يفرض على معلمي اللغة العربية- في المدارس التي سمح بإنشائها- معرفة اللغة الفرنسية كلشرط أساسي لتوظيفهم ، وكان الهدف من ذلك القضاء على التعليم العربي وتحطيم كيانه لأنها تعلم أن أغلب هؤلاء المعلمين لا يحسنون الفرنسية أصلا²⁷ .

- قانون 20 سبتمبر 1947م: وصدر بعد أن نص دستور (1947م) على الاعتراف باللغة العربية وتدريسها إلى جانب الفرنسية لكن بصفة محدودة، إلا أن

الإدارة الفرنسية لم تطبق ذلك فحصرت تعليمها في تدريس القواعد العامة الأولية، وفي خارج أوقات الدراسة العادية²⁸

- قرار 1949م: وهو قرار صادر عن مجلس الدولة الفرنسي أعاد اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية ويمنع تدريسها بالمدارس الرسمية وفي المساجد الخاضعة للسلطة الفرنسية.

- نداء 05 مارس 1954م: وهو نداء طالب من خلاله مفتشو التعليم الابتدائي بإلغاء تعليم اللغة العربية إجباريا في المرحلة الابتدائية، لأن ذلك سيؤدي في نظرهم إلى تعريب البلاد-وكأنها كانت فرنسية في الأصل-، وفي هذا النداء تم تقسيم اللغة العربية إلى فئات ثلاثة وهي:

أ/ اللغة العامية: وأهميتها لا تتعدى كونها لهجة محلية.

ب/ العربية الفصحى: وهي لغة ميتة.

ج/ العربية الحديثة: وهي لغة أجنبية عن البلاد.²⁹

لقد نجح هذا الأمر في رفع نسبة الأميين ونشر الجهل والشعوذة والخرافات، مما أدى إلى عرقلة التعليم في أوساط المواطنين،³⁰ ونتج عن ذلك أن أصبحت نسبة الأميين من الجزائريين 92.2% بين من تصل أعمارهم إلى حوالي 18 سنة، و90% بين من تجاوزت أعمارهم ثمانين سنة، فيما تشرّد أكثر من نصف مليون طفل جزائري في الشوارع وهم في سن الدراسة، لأنهم لم يجدوا مكانا للدراسة ولا من ينفق عليهم³¹.

وإلى جانب سياسات مكافحة تعليم اللغة العربية بمختلف الأشكال، كان الاستعمار الفرنسي يرافقها بسياسات الفرض الإجباري للتعليم الفرنسي على بعض الأهالي الجزائريين بغية تكوين نخبة من الجزائريين ذات ثقافة فرنسية، وهو ما أطلق عليهم فيما بعد "النخبة المفرنسة"، أو "الطبقة المتغربة"، وبذلك ربطت فرنسا سياسة التعليم الفرنسي في الجزائر بسياستها الإستعمارية ومشاريعها الاستيطانية بتكوين متعلّمين مرشحين لمناصب دينية كالإفتاء والقضاء، وللتعيين في الوظائف ككتابة وأئمة ومعلمين، والجدول يبيّن بعض أعداد المتدربين (الجزائريين والفرنسيين) في المستويات الثلاث بين (1920-1932م)³²:

التعليم الجامعي		التعليم الثانوي		التعليم الابتدائي		السنة
جزائريون	فرنسيون	جزائريون	فرنسيون	جزائريون	فرنسيون	
47	1282	445	6110	41240	64168	1920
66	1986	595	6674	/	/	1924
93	1997	863	10869	55746	66475	1928
103	2564	/	/	/	/	1934

نلاحظ من خلال الجدول الذي يرصد أعداد المتعلمين من الجزائريين والفرنسيين في المستويات الثلاث (الابتدائي، الثانوي، الجامعي) أن النسبة المتعلمين الجزائريين ضئيلة مقارنة بالفرنسيين، وهو ما يبيّن اعتماد سياسة تجهيل الجزائريين، إلا إذا كان تعليمهم يهدف إلى تكوين نخبة مفرنسة خدمة لمصالح الاستعمار، فالعلامة "ابن باديس" مثلا وصف التعليم في الجزائر في بداية القرن العشرين قائلا: "هذا القطر قريب من الفناء، ليست له مدارس تعلّمه، ليس له رجال يدافعون عنه ويموتون عليه، بل كان اضطراب دائم ومستمر، كان أبناؤه لا يذهبون إلا إلى المدارس الأجنبية التي لا تعطيه -غالبا- من العلم إلا الفتات الذي يملأ أدمغتهم "بالسفساف"، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم، وقد ينكروها"³³.

لكن ما يؤكد فشل السياسة الاستعمارية في هذا الجانب، أن قسما كبيرا من النخبة المتخرجة من هذا التعليم - المدرسة الفرنسية- قد ساهم في تنشيط الحركة الوطنية وتأطير الثورة التحريرية سنة (1954م)، فشلت إلى حد كبير الإدارة الكولونيالية التي كان هدفها الحقيقي هو تكوين طابور من الوسطاء لخدمة هيمنتها على الجزائر، فكان من خريجي المدرسة الفرنسية قادة جبهة التحرير الوطني والعديد من الشهداء، ومنهم من واصل الدراسة والتكوين في المشرق العربي،³⁴ وهو ما يبين فشل الإدارة الاستعمارية في استقطاب الجزائريين للتعليم الفرنسي وخدمة مصالحه الإستعمارية برغم نجاحها إلى حد كبير في تجهيل الأهالي.

أما الشيخ البشير الإبراهيمي فقد اعتبر ظاهرة عدم شعبية المدرسة الفرنسية نعمة، إذ صرح سنة (1930م) قائلا: "لو تأخر الإصلاح 20 سنة لما وجدنا من يسمعنا" في إشارة إلى بداية تأثير المدرسة الفرنسية في الجزائريين.

- المغايرة الثقافية الرافد المغذي لسياسة فرق تسد :

إن محاولة اجتثاث اللغة العربية من ثقافة الجزائريين، لم تنحصر في إصدار الأوامر والقوانين التي تهدف إلى جعلها لغة أجنبية في موطنها الأصلي، ولم تقتصر أيضا في فرض اللغة الفرنسية على الأهالي وتشجيع اللهجة العربية العامية على حساب الفصحى، فقد تعدى الأمر إلى حد التشكيك في أصل السكان وتاريخهم العربي الإسلامي، وهي أخطر آلية، وحلقة قوية أريد بها إحالة الشعب الجزائري عن أصالته الفكرية وشخصيته الثقافية، بضرب بنيته الاجتماعية وتكريس الانشقاق بينهم.

سعى المستعمر الفرنسي الى التفريق بين العرب والأمازيغ (البربر) فأسس علماء في المغرب الأقصى "معهد البحوث العليا المغربية للدراسات البربرية"، وألف طيبان فرنسيان في تونس كتابا بعنوان "مقاييس جماجم البربر وأوصافهم وسماتهم العضوية والعرقية مع مقارنة بسمات ومقاييس جماجم الغالين"، أين حاولوا من خلال ذلك إقناع البربر بأنهم من سلالة أوروبية وعليهم عدم التفريط في لغتهم البربرية، فمنعوا تعليم اللغة العربية في مناطقهم (بلاد القبائل)، وأقاموا المدارس الفرنسية³⁵، كما تم إنشاء "معهد الدراسات الشرقية" في باريس، وخصّص فيه قسم لتدريس اللهجة البربرية الجزائرية منذ سنة (1913م)، وقد دشّن تدريس هذه اللهجة من طرف الأستاذ "أودمون ديستان" الذي إستمر يدرّس هذه المادة إلى حين تقاعده سنة (1940م) فخلفه غيره من الأساتذة المستشرقين أمثال: "أندريه باسي"، "ابن روني باسي" الذي قام بنشاط طوال وجوده في المغرب العربي في سبيل إحياء فكرة "لغة بربرية" بجانب الفرنسية³⁶.

لقد ركّز الاستعمار الفرنسي على منطقة القبائل هدفا في إنشاء الأسطورة القبائلية التي بها يتم إخضاع وإفشال العرب، وبالتالي السيطرة على الطرفين كصورة جلية عن سياسة "فرق تسد"، ولذلك كان الاهتمام الفرنسي منذ الاحتلال منصبا على دراسة هذه المنطقة من جميع جوانبها: جنسها، عاداتها، تقاليدها، وتكوينها الاجتماعي³⁷، في ذلك يرى المفكر الفرنسي "ألكسي دوتوكفيل": "أن غزو بلاد القبائل أو

احتلالها غير ممكن، فجبالمهم يصعب على قوّاتنا اختراقها في الظرف الراهن. كما أن المزاج غير المضيف للسكان لا يترك أي أمن للأوروبي الذي يرغب في إتخاذهما ملجأ هادئا، إن بلاد القبائل مغلقة أمامنا إلا أن أرواحهم مفتوحة لنا، وليس مستحيل علينا دخولها... طبيعي أن ترويض أشخاص كهؤلاء يتم بفنوننا وليس بأسلحتنا.³⁸

تم التركيز على الكتابة بكثرة عن هذه المنطقة دون غيرها من مناطق القطر الجزائري لإبراز "الخاصية القبائلية" "partialarité kabyle" وتكريس "الأسطورة القبائلية" "Myrage ou mythe kabyle"³⁹ محاولين بذلك تمرير نظريتهم الإستعمارية العنصرية القائلة بأن العناصر القبائلية تنحدر من أصل أوروبي غير عربي* كما حاول الاستعمار إثارة واستغلال بعض نقاط الاختلاف المزعومة بين الأسر القبائلية والعربية في العادات والتقاليد، للتركيز عليها والانطلاق منها لبناء نظريتهم العنصرية، إذ كتب الجنرال "دونيفي" سنة (1841م) محاولا إبراز اختلاف العنصر القبائلي عن غيره بقوله: "إن استقرار القبائل وحمّهم العمل يجب أن يكونا قوام سياستنا في إفريقيا"، وتبنّى آخرون سياسة خطيرة تهدف إلى استغلال هذا الإدعاء في الاختلاف بين العرب والقبائل وتضخيمه لفصل الاثنين عن بعضهم البعض ودمج القبائل، بالقضاء على العنصر العربي بعد إضعافه وتشتيت شمله.³⁹

ويظهر أن الاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر من خلال اعتماده على هذه السياسة (التقليعة الثقافية) والتفريق بين العرب والبربر يعتمد على التخطيط الفكري الإستراتيجي البعيد المدى، من خلال التدرّج المرحلي في تحقيق مكاسب هامة تتمثل في تكريس أكثر للاستيطان عن طريق ضمان قيام واستمرارية كيان استيطاني أوروبي غريب في الجزائر بين جنسين سيصبحان متناحرين ومتباعدين، وهي خدمة جلية للمستوطنين.

ثم إن تفتيت الشخصية الثقافية والحضارية والديمغرافية المحلية يؤدي بالضرورة إلى بناء قاعدة ديمغرافية جديدة مناصرة للقوة العسكرية (الاستعمار) قد تؤدي فيما بعد إلى الانفصال في النهاية عن البلد الأم وتكوين دولة استعمارية استيطانية.⁴⁰

الهوامش

1. - عبد الملك خلف التميمي، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، المغرب العربي، فلسطين، الخليج العربي، دراسة تاريخية مقارنة، عالم المعرفة، 1983م، ص139.
2. - راجح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية من 1930-1956 دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1986م، ص106.
3. - صالح فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر: من عهد الفينيقيين إلى خروج الجزائريين، الجزائر: دار العلوم، 2002م، ص208.
4. - المرجع نفسه، ص210.
5. - يحيى بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية (1930-1954)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983م، ص45.
6. - عبد القادر ماجن، القبض الحديدي للاستعمار على الشعب الجزائري، مجلة أول نوفمبر، عدد خاص 1987م، صص122-125.
7. - عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، الجزائر: ط1، دار الأمة، 1999م، ص66.
- * - جلب قائد الحملة العسكرية على الجزائر الجنرال "ديبورمون" معه 16 قسيسا رافقوا الجيش الفرنسي في مهامه العسكرية.
8. - راجح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الجزائر: الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، 1974م، ص43.
9. - عبد القادر حلوش، المرجع السابق الذكر، ص66
- * - ضواحي الجزائر العاصمة.
10. - عبد القادر حلوش، المرجع السابق الذكر، ص68.
11. - صالح فركوس، المرجع السابق الذكر، ص.
12. - عبد القادر حلوش، المرجع السابق الذكر، ص69.
- * - تقرر فصل الدين عن الدولة في فرنسا سنة 1905.
13. - الآباء البيض: سميو بهذا الإسم نظرا للباس الأبيض الذي كانوا يرتدونه، وهم جمعية فرنسية تبشيرية تستهدف الأطفال والمرضى والفقراء .
14. - صلاح العقاد، المغرب العربي، القاهرة: دار الشروق، 1980م، ص156.
15. - عبد القادر حلوش، المرجع السابق الذكر، ص72.
16. - أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، القاهرة: ط1، مكتبة وهبة، 1981م، ص127.

- * - التعليم الكتائبي: هو تعليم ديني يقوم على تحفيظ القرآن والقراءة والكتابة البسيطة، أما التعليم الأهلي فهو: تعليم تحت إشراف المنظمات والأحزاب الوطنية.
17. - أحمد طالب إبراهيمي، ترجمة حنفي بن عيسى، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية: 1962-1972م، الجزائر: 1972م، ص 14.
18. - يحيى بوعزيز، سياسة التسلط الإستعماري والحركة الوطنية الجزائرية (1830-1954م)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1985م، ص 47.
19. - عبد الملك خلف التميمي، المرجع السابق الذكر، ص 77.
20. - المرجع نفسه، ص 78.
21. - معوض نازلي، الشخصية العربية الجزائرية بين الثقافة الفرنسية والسياسة الثقافية العربية، المستقبل العربي، ع17، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1980م، ص 101.
22. - عبد الملك خلف التميمي، المرجع السابق الذكر، ص 79.
23. - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م، ص 63.
- * - أعلن المجلس الأعلى للجزائر سنة 1894: أن العرب جنس أسفل غير قابل للتعليم والتربية، وأوصى بإلغاء التعليم الابتدائي للأهالي، وأكد تلك التوصية شيوخ بلديات الجزائر سنة 1908م.
24. - يحيى بوعزيز، المرجع السابق الذكر، ص 66.
25. - عبد الملك خلف التميمي، المرجع السابق الذكر، ص 80.
26. - شارل روبير أجيرون، ترجمة عيسى عصفور، تاريخ الجزائر المعاصرة، ط2، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م، ص 152.
27. - يحيى بوعزيز، المرجع السابق الذكر، ص 67.
28. - يحيى بوعزيز، المكان نفسه.
29. - يحيى بوعزيز، المرجع السابق الذكر، ص 68.
30. - عبد الرحمن سلامة، التعريب في الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا، دمشق: 1976م، ص ص 15-16.
31. - يحيى بوعزيز، المرجع السابق الذكر، ص 69.
32. - أنجز هذا الجدول بالإعتماد على معطيات واردة في عدة مراجع منها: - أحمد شقيف أحمد أبو جزر، المرجع السابق الذكر..
33. - أحمد الخطيب، المرجع السابق الذكر، ص 64.

34. - محمد العربي ولد خليفة، محمد العربي ولد خليفة، الإحتلال الإستيطاني للجزائر، مقارنة للتاريخ الإجتماعي والثقافي، الجزائر: دارتالة ، 2005م ، ص81.
35. - أحمد الخطيب، المرجع السابق الذكر، ص84.
36. - مغنية الأزرق ، ترجمة سمير كرم، نشوء الطبقات في الجزائر، بيروت :مؤسسة الأبحاث العربية، ، 1980م ، ص67.
37. - عبد القادر حلوش، المرجع السابق الذكر، ص81.
38. - ألكسي دوتوكفيل، نصوص عن الجزائر في فلسفة الإحتلال والإستيطان، ترجمة ابراهيم صحراوي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2005، ص22.
- * - كتب الجنرال دوماس قائلا:"يوجد جنسان مختلفان، الجنس العربي والجنس القبائلي".
39. - عبد القادر حلوش، المرجع السابق الذكر، ص82.
40. - حميدة عميراي، آثار السياسة الاستعمارية والإستيطانية في المجتمع الجزائري(1830-1954)، الجزائر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2007م ، ص72.

قائمة المراجع

1. التميمي عبد الملك خلف ،الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، المغرب العربي، فلسطين، الخليج العربي، دراسة تاريخية مقارنة، عالم المعرفة، 1983م.
2. العقاد صلاح ، المغرب العربي، القاهرة: دار الشروق، 1980م.
3. الأزرق مغنية ، ترجمة سمير كرم، نشوء الطبقات في الجزائر، بيروت :مؤسسة الأبحاث العربية، ، 1980م.
- أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م.
4. أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، القاهرة :ط1، مكتبة وهبة، 1981م.
5. أحمد طالب الإبراهيمي، ترجمة حنفي بن عيسى ،من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية: 1962-1972م ، ، الجزائر: 1972م .
6. تركي راجح، التعليم القومي والشخصية الوطنية من 1930-1956 دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، الجزائر:الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1986م.

7. فركوس صالح، المختصر في تاريخ الجزائر: من عهد الفينيقيين إلى خروج الجزائريين، الجزائر: دارالعلوم ، 2002م.
8. حلوش عبد القادر، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، الجزائر: ط1،: دار الأمة، 1999م.
9. بوعزيز يحيى، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية (1930-1954)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983م.
10. ماجن عبد القادر ، القبضة الحديدية للاستعمار على الشعب الجزائري، مجلة أول نوفمبر، عدد خاص 1987م.
11. تركي ابح ، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الجزائر: الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، 1974م..
12. يحيى بوعزيز، سياسة التسلط الإستعماري والحركة الوطنية الجزائرية (1830-1954م)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1985م.
13. نازلي معوض ، الشخصية العربية الجزائرية بين الثقافة الفرنسية والسياسة الثقافية العربية ،المستقبل العربي، العدد17، بيروت: 1980م
14. شارل روبر أجيرون، ترجمة عيسى عصفور، تاريخ الجزائر المعاصرة. ط2، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م.
15. سلامة عبد الرحمن ، التعريب في الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا. دمشق: 1976م.
16. دو توكفيل ألكسي ، نصوص عن الجزائر في فلسفة الإحتلال والاستيطان، ترجمة ابراهيم صحراوي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2005م.
17. ولد خليفة حمد العربي ، الإحتلال الإستيطاني للجزائر، مقارنة للتاريخ الإجتماعي والثقافي، الجزائر: دارتالة ، 2005م.
18. عميراوي حميدة- آثار السياسة الاستعمارية والإستيطانية في المجتمع الجزائري(1830-1954)، الجزائر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2007م.